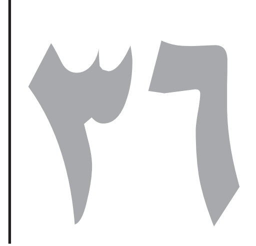
الدّراسات والبحوث



محرقة للكاتب والكتاب والمكتبة..!

د.خير الدين عبد الرحمن*

لم يكن أمراً عادياً أن أول كلمة أنزلها الوحي على النبي محمد (ص) هي خطاب الخالق عزّ وجل، ولنا من بعده: (اقرأ). تكررت نفس الكلمة في خطاب الله عز وجل لكل فرد من أفراد البشر يوم القيامة: (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً). لعلّ هذا ما جعل شيخ الصوفية محي الدين بن عربي يختزل العالم بأسره كتاباً، إذ اعتبر أن العالم كتاب تكويني.

* أديب وباحث في التراث العربي (سورية).
العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

مثله فعل الفيلسوف الايرلندي جورج باركلي (١٦٤٨-١٧٥٣) الذي رأى العالم لغة رمزية لم يستطع أحد حل رموز شيفرة حروف أبجديتها بعد. سار على نفس النهج الكاتب الأرجنتيني المبدع خورخه لويس بورخيس مماهيا

بين العالم والكتاب، إذ رأى العالم مجرد كتاب كبير، فضاء بلا حدود. كما رآه مكتبة ذات عدد لا ينتهي من القاعات السداسية المسيجة لا نهاية لطوابقها العلوية والسفلية، تتوسط كلاً منها بئر واسعة للتهوية، مكتبة لا نهائية، مضيئة، جامعة للمعارف قاطبة، خالدة خلود الكون، ليس بين كتبها كتابان متطابقان، الإنسان فيها أمين مكتبة عابر ضئيل (بورخيس، مكتبة بابل). كما رأى كل ظاهرة مادية أو عقلية ذات معنى في عالمنا كتاباً مكتوباً بحروف لم نكتشف بعد كنه رموزها، فجميع الأشياء والأحداث والتواريخ والصور والعلامات حروف أبجدية كتاب العالم اللامتناهي في بدايته، اللامتناهي في نهايته.. (بورخيس، كتاب الرمل).

☆ ☆ ☆

لاذ المؤرخ العربي ابن الأثير بالرواية والرمز ليدوّن ما يشاهده من سطو مغولي على العراق خصوصاً عندما بنى هولاكو مآذن من الجماجم، وأحال مياه النهر سوداء لكثرة ما ألقي فيها من الكتب! لقد بكى ابن الأثير حتى بلل مخطوطاً كان بين يديه، وتمنى لو أن أمه لم تلده كي لا يرى ما رأى عندما اجتاح هولاكو بغداد. واستشرف ابن خلدون ما تعيشه أمتنا اليوم من موات وانهيارات وإذلال، بعدما عايش المقدمات في التعاجز الذليل أمام اجتياح تيمورلنك، بحيث تصرف أبناء الأمة المغيبين عن الوعي كقطيع تسعى كل دابة فيه للنجاة بجلدها غير آبهة بمصير أخواتها.. كانت النتيجة المنطقية آنذاك تكرار مثل ذلك المشهد الموغل في المهانة، عندما اصطف مئات إلى جدار مستسلمين تماماً، وراح جندي من الغزاة يقطع رؤوسهم واحداً إثر الآخر، إلى أن كلت يد الجلاد فسقط السيف من يده، وإذ بمن كان الدور في قطع الرأس قد وصل إليه ينحني ويرفع السيف عن الأرض ثم يعيده بأدب جم إلى يد الجلاد المتعبة، فهوى السيف على عنق ذلك الرجل /النعجة، ومضى الجلاد يكمل حفلة الذبح!

كيف يمكن حماية مجتمعنا بغير فعل واع لقوة من داخله؟

اعتدنا أن نتناقل ونكرر تقديم نموذج صارخ لوحشية وتخلف هولاكو وجيشه بالبكاء حسرة على مئات آلاف الكتب والمخطوطات التي ألقيت في مياه نهري الفرات ودجلة فسالت المياه الغزيرة سوداء أياماً، بعدما تلونت بحبر انتزعته عن الورق فذاب فيها مبدداً الكلمات والأفكار. لسنا هنا في وارد مناقشة أسباب جعلت أحفاد المغول والتتار اليوم يعتبرون هولاكو وتيمورلنك وجنكيز خان من أعظم أبطالهم ومصلحيهم وبناة حضارتهم، بعكس



ما نراه فيهم من وحشية وتخلف ونزوع للقتل والتدمير، فلذلك النقاش مقال آخر. ولئن اعتدنا أن نستذكر مجزرة هولاكو في بغداد وننحي عليه باللائمة كلما جاء ذكر ثروة أجدادنا من الكتب والعلوم، فتقضي العدالة والحقيقة أن لا نغفل حقيقة وقائع نبه إليها د.محمد عمارة وآخرون، يتحمل أجدادنا

وزرهــا. إذ أمر الخليفــة العباسي المستنجد بالله مثــلاً سنة١١٥٠م، أي قبل ولادة جنكيز خان بل وأبيه أيضاً، وتحديداً قبل مئة وسبع سنــين من سقوط بغداد تحت سيوف هولاكو ونيرانه، بإحراق الكتب العلمية في بغداد. كما أمر المنصور بإحراق كتب ابن رشد في أواخر القرن الحادي عشر (د.محمد عمارة، التراث في ضوء العقل، القاهرة، ص٢٨٨-٢٨٩).

وهنا نلح على التساؤل: ألا يقتضي المنطق، ومثله العدالــة واحترام الحقيقــة ومحاسبة الذات، أن لا نستخــدم معايير مزدوجة إزاء جرائم لطالمــا هاجمنا مرتكبيها، وبالتالي أن ندمغ من يرتكب مجازر بحق الكتب والمكتبات من بيننا في زماننا بمثل ما دمغنا به الغزاة أو الجهلــة أو الطغاة الذين ارتكبوا نفس الجرم قبل قرون؟

☆ ☆ ☆

في ساعــة جنــون وإجرام مــن ساعات امتدت طويلاً منذ مطلع العام٢٠٠٧م بإصرار من سدنــة الفوضى الخلاقة، تم إحراق سبع مــن مباني الجامعــة الإسلامية في غزة، بما فيها مبنــى المكتبة المركزيــة الضخم، بكتبه ومخطوطاته وتجهيزاته الإلكترونية المتطورة. تواصلت في نفس الفترة هجمات على مدارس وكليــات جامعية وعلمــاء في بغداد، فالتحق مئات العلماء والأساتــذة والطلبة بآلاف من زملاء حصدهــم القتل الذي يرعــاه الغزاة ويستمتعون بانتشــاره. ثم جاء انفجار سيارة مفخخة في مطلع الشهــر اللاحق، وتحديداً يــوم ٢٠٠٧/٣/٥م، في مقهــى الشابنــدر، قرب مقــر التجمع الثقافي العراقي في شارع المتنبــي في قلب بغداد، بينمــا اشتد ازدحام الباحثين عــن الكتب، فجدد هــذا التفجير المهانــة التي ألحقها مغول هولاكو بالإنسانية عندما بددوا نتــاج آلاف المفكرين والمبدعين في ميــاه الرافدين. تضرج شارع المتنبي، آخر معاقل مثقفي بغداد بدماء ٦٨ قتيلاً وجريحاً واختلطــت أوراق الكتــب المتناثــرة بالدماء والجثث المتفحمــة على جانبي الشارع، فيما كانت النــار تلتهم مكتباتــه التاريخية: يعود الشــارع إلى أواخر العصــر العباسي، عندما كان يدعــى «درب زاخا» واشتهــر منذ ذاك بازدهار مكتباته ومؤسساته الثقافية العريقة مثل مدرسة «الأمير سعادة الرسائلي» و «رباط أرجــوان» وقد أطلق على الشارع اسم المتنبي عام١٩٣٢م. نقل الإعــلام قول مسؤول مزاد

الكتب في سوق الجمعة نعيم الشطري باكياً: «قتل الكتاب أخطر من قتل الإنسان (...) لأن للإنسان عمر، أما الكتاب فيبقى خالداً، وقد أحرقوه.. إنهم يحاولون قتل المعرفة في هذا البلد، وهم يقتلون الطلبة في الجامعات واليوم يقتلون الكتاب في أعرق شوارع بغداد التاريخية». مثله بكى معظم أصحاب المكتبات والرواد والمارة لهول ما رأوه في الانفجار وما نجم عنه من قتل وتدمير، وأكثر من هذا، لهول مغزى اختيار مكتبات هذا الشارع لتدميرها.

قال محمد حميد، صاحب إحدى المكتبات التاريخية القديمة المحترقة أن مكتبته كانت «تضم موسوعات وكتباً تاريخية نادرة ودينية مهمة جداً غير موجودة إلا في بغداد». وأكد أن «هذه الكتب مصادر بحث علمية وأدبية لكثير من طلبة الدراسات العليا»، ثم أغرق في البكاء وهو يردد «لا حول ولا قوة إلا بالله».

... العدد الأكبر من الضحايا هم ممن كانوا في الشارع لحظة وقوع الانفجار، بينهم عدد من باعة الكتب ممن يفترشون الرصيف بكتبهم. وبعد ساعات ذكرت الأخبار أن أربعين مكتبة ومحلاً للقرطاسية وتجارة الورق دمرت تماماً، وأن سبعين أخرى تضررت أضراراً متفاوتة عدد الضحايا ارتفع إلى تسعة وثلاثين قتيلاً، جثث بعضهم كانت متفحمة بحيث صعب التعرف على أصحابها. ويقول خبر آخر. ما تزال هناك جثث أخرى تحت الأنقاض لم تنتشل بعد!

☆ ☆ ☆

يتباهى الأمريكيون -ويحق لهم هذا التباهي- إذ قد اقترب عدد الكتب التي تضمها مكتبة الكونغرس الأمريكي، أضخم مكتبة معاصرة في عالمنا بطوابقها المتعددة القائمة على مساحة أربعة آلاف متر مربع، من أربعين مليون كتاب تم تنضيدها على رفوف مجموع أطوالها أربعمئة كيلومتراً. لكن الأمريكيين أنفسهم هم الذين افتتحوا موسم تجديد الوحشية الهولاكية في العراق، مستهدفين المتاحف والجامعات والعلماء والمثقفين، مستكملين ما مارسه الغزاة الصهاينة وما يزالون يمارسونه من استهداف لكل ما يرتبط بتاريخ فلسطين وثقافتها وتراثها وحضارتها وإنسانها.

ففي اليوم الأول لسقوط بغداد على أيدي المحتلين الأميركيين مغول العصر الجديد، جرى تدمير الكثير من مظاهر الحضارة

والثقافة فيها، كان أبرزهــا إحراق المكتبات ونهــب الآثــار ومتاحــف الفنــون، وتدمير المؤسســات الثقافيــة، بما فيهــا الجامعات وبيوت العلم.

«..قورش الفارســي الذي تمجده التوراة لأنــه حــرر اليهود مــن عبوديتهــم في بابل وأعادهــم إلى أورشليم التــي دمرها نبوخذ نصــر. .. هــل استوحى جيمســ بيكر وزير الخارجية الأمريكي قبل ستة عشر عاماً هذا التاريــخ في تحذيره للحكومــة العراقية بأن أمريكة سترد العراق إلى البدائية وقروناً إلى الــوراء؟ ولكن كثيرين مــن العلماء والباحثين في التاريــخ ردوا على بيكر بأن العراق لم يكن قــط بدائياً في تاريخه.. لم يعرف العراق أبداً عصور الظلم بالطريقة التي عرفتها أوروبا في تاريخها»، تكتب إحدى العالمات البريطانيات والتي اختصاصها تاريخ العراق. وقالت أيضاً أن بربرية مــا حل بثقافة العراق لا مثيل لها في التاريخ الإنســاني. لقد كان هنالك موعد جهنمي مع نبوخذ نصر ومملكته وأدوات مجده وقوته ورموزها ومع ممالك أكاد وسومر وآشور في المتحف الوطني العراقي الذي فتح الجنود الأمريــكان بواباته. أمــا محتوياته فإن تجار الآثار بأغلبيتهم اليهوديــة كانوا قد «نشنوا» عليها من قبل وعرفوا ما يختارون منها (وذلك حسب تصريحات أساتذة جامعين وخبراء آثار مشهورين)، كانت هناك نسخ لمفاتيح الخزائن بأيــدي السارقين وكانــوا يعرفون الفرق بين النسخ الزائفة والآثــار الحقيقية، كما يقول جون كورتيز مــن المتحف البريطاني. وغيرت قوانــين في الولايات المتحدة مــن قبل الغزو وحتى يصبح أخذ مافيات الآثار لما يوجد في العراق شرعياً.

كان علمــاء الآثــار يعلمون بمــا تضمر قــوات التحالف لثروات العــراق الحضارية فأرسلوا المناشدات تلــو المناشدات بالحفاظ على الآثار والمواقع وحماية محتويات المتاحف والمكتبات متوجهين بهــا إلى رامسفيلد وإلى بلــير ووزير دفاعه. إنــذار العلماء بما يمكن أن يحدث وصرخاتهم لمنعه كان مثل استنجاد روبرت فيسك مراسل «الاندبندنت» بالقوات الأمريكية حين رأى المكتبة الوطنية العراقية تحــترق بكتبها النادرة مــن دون أن يستجيب له أحد. الحريق والسرقات كانا في الأجندة. أمــا نبوخذ نصــر فلم يكن لــه ذلك المصير في المتاحــف فقــط، وإنما أيضــاً في مكان

الحدائــق المعلقة التي بناهــا حيث اتخذتها القــوات الأمريكيــة قاعدة لهــا وكانت تمر عليها بالدبابات وسط احتجاجات أهل الآثار وصراخهــم حيث لم يدمر الأمريكان الشواهد الحضارية علــى الأرض ويكســروا التبليط القــديم ويبعثــوا بالحوائط وبوابــة عشتار وإنما دكوا بالدبابات وخربوا ما تحت الأرض وهــو كبير وكثــير. نبوخذ نصــر يطارد فوق الأرض وتحتها. (د.أمينة أبو شهاب، الخليج، الشارقة،١٢/٤/٢٠٠٦).

☆ ☆ ☆

لكــن الأمر لم يقتصر على إجرام غزاة في فلسطين والعــراق بحق الكتاب والثقافة، ولا على إيغال جهلــة مرضى في التماهي مع ما يرتكبــه الغزاة حتى عندمــا يقصد بعضهم مقاومــة الغزو، بل «انتشــرت ثقافة الحطام انتشاراً طاغياً» كمــا اشتكى ريجيس دوبريه يومــاً، فتعطلت قيم خــيرة ومعايير أخلاقية وأولويــات إنسانيــة ساميــة لمصلحة طغيان السعي إلى المال على كل اعتبار آخر، تجديداً لعبادة نماذج معاصــرة للعجل الذهبي. لقد راحت المكتبات تذوي وتتناقص في كل مدننا العربية على نحو لم يعد يخفى على أي متابع.

ولئن وجــدت مكتبة عريقــة في الكويت من يكتب نعياً لها، فكم من المكتبات على امتداد قارتنا العربية لم تجد من يبكي مسخها مخازن بقالة أو متاجر أحذيــة؟ أيكفكف دموع تلك المكتبــات جهد المقــل إذ نقتطف سطوراً من نعــي مكتبة كويتية: «..يحيــى الربيعان أحد أعمدة الكتاب والثقافة المستنيرة في الكويت، مؤلفاً، وناشراً، وموزعاً، وكان المسؤول عن أول معرض كتــاب أقامه المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت عام ١٩٧٥م، وهو صاحب دار الربيعــان، التي احتضنت مئات آلاف العناوين والكتب والمراجع، وكانت على مدى عقود محطة زاخــرة بكل الطيبات من المعــارف الفكرية والثقافيــة والفنية، وكانت حلمــاً لمــن يريــد أن ينشر كتابــاً بسبب من شهرتها ونشاطها، وبسبب من عشق صاحبها للكتــاب الجاد والمبــدع والملتــزم، واحترامه للكتاب والمبدعين، وأخــيراً بسبب من أمانته النادرة في التعامل مــع الكتاب والقراء على حد ســواء.. إن إقدام قامــة ثقافية عالية.. علــى بيع كتبه في المــزاد، وبأرخص الأثمان، وإغلاق دار النشر والمكتبــة التابعتين له، في دولــة مثل الكويت، لا تتوافــر إلا على العدد

القليل من دور النشر الجادة والملتزمة،.. خسارة لكل مبدع ومثقف عربي.. جزء من انكسار حلم كبير كان يراود مجموعة كبيرة من أدباء ومثقفي ومبدعي الوطن العربي، وصل الأمر عند بعضهم حد الانتحار، في زمن صارت فيه كتابة عبارة «الوطن العربي» ضرباً من الأماني.. حلم أخذ في مسيرته آلاف الشهداء، ولوّن بالوجع حياة ملايين العرب من المحيط إلى الخليج. حلم بوطن يقيم وزناً للكلمة ويؤمن بها، ويثق بقدرتها على التغيير..

وسط واقع عربي موجع مصبوغ بالدم اليومي، المسفوح برخص التراب، وفي واقع عربي مرتهن لغد ملطخ بالسواد والشؤم، ما الذي يعنيه انسحاب رجل نذر حياته للفكر والأدب من عالم النشر والكتاب والكتب؟ ما الذي يعنيه أن تغلق دار نشر ومكتبة؟.. لا خلاص لنا، أفراداً وأمة، إلا بالكلمة، فوحدها الكلمة العربية المبدعة.. قادرة على أن تضعنا إلى جانب الآخر.. الطريق كانت طويلة وموحشة، والرحلة كانت متعبة وقاسية، والخسارة كانت أكثر حضوراً من الربح.. اللحظة التي مرت لا يمكنها أن تعود.. وهذا هو مأزق الحياة الأصعب.. (طالب الرفاعي، انكسار مكتبة يحيى.. انكسارنا أجمعين! الحياة، بيروت، ٧/٣/٢٠٠٧م).

☆ ☆ ☆

عزفت الغالبية الساحقة من الناس على امتداد وطننا العربي عن القراءة، وهبطت نسبة الكتب العربية التي تطبع سنوياً بالمقارنة مع عدد السكان في كل قطر من أقطارنا العربية إلى أدنى مستوياتها بين سائر أمم الأرض -سواء كعناوين أو عدد نسخ كل منها، ناهيك عن مستوى ومضمون موادها. بينت إحصائية نشرت في منتصف العام ٢٠٠٥م أن القارئ العربي يحتل أدنى سلم مستويات القراءة في العالم. ذكرت تلك الدراسة أن معدل قراءة الفرد العربي هو نصف ساعة في السنة، تتم خلالها قراءة ربع صفحة فقط. في المقابل، معدل ما يقرأه القارئ الأمريكي هو أحد عشر كتاباً في السنة، والبريطاني سبعة كتب في السنة. كيف انتهينا إلى قراءة ربع صفحة في السنة على مدى نصف ساعة فقط، يا أمة «اقرأ» ولن نخوض في مستوى وطبيعة أغلب ما نقرأ! هذه فضيحة لنا جميعاً: أميين ومتعلمين وأشباه

متعلمـين يشكلون غالبية ساحقة.. محكومين وحكامـاً.. قـراء فعليين ومفترضـين وكتاباً وأشبـاه كتاب. (شملان يوسف العيسى، أزمة مراكز البحوث العربيـة، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٠٠٥/١١/٢٧م، صـ٢٦) وهكذا تنهار هنا ادعاءات خوارق إنجازات ونهوض ومعجزات تنمية أطلقتها -وما تزال تطلقها دون وجل- أبـواق دعاية كاذبة في معظم البلدان العربية عندمـا نستعرض الفضائـح المهينـة التي يجسدها عـدد عناوين الكتب المطبوعة على امتداد الوطن العربـي، ومستوى موضوعات معظمها و مضامينها، وعدد النسخ المطبوعة من كل منها لأمة تجـاوز تعدادها الثلاثمئة مليون نسمة، يضاف إليهم مئات الملايين من الناطقين بالعربية على امتداد العالم الإسلامي ومناطق أخرى! أيكفي إعلان اتحاد الناشرين العـرب من أن أشهـر المؤلفين العرب لا يبيع أكثر من أربعة آلاف أو خمسة آلاف نسخة في نطاق قرائي يزيد على ربع مليار قارئ باللغة العربيـة، بينما توزع صحيفـة عبرية مليون نسخـة في نطـاق قرائي لا يتجـاوز خمسة ملايين قارئ باللغة العبرية؟ لقد باتت الأرقام المتعلقة بفضائح ثقافية ومعرفية تمس الأمة بأسرهـا متداولة ومكررة. لقـد أسهم الغرق والإغـراق في جرعـات المعلومـات السريعة الهشة المعلبـة المتداخلة بالتسليـة والترفيه وقصف الرسائل الإعلانية المغمورة بفيضان المتاجـرة بتعريـة الأجسـاد في تزايد تغلغل السطحية الثقافية. وهـي سطحية ضاعف منها تسارع إيقاع الحياة وطغيان نمط العيش الأمريكي الهجين والهش، كما عززها الولوغ الشديد في أولوية السعي لانتزاع لقمة العيش على أي اعتبارات أخرى. تجاوز هذا الوضع البائس العامة إلى مـن يفترض بهم الانتماء إلى قطاع المثقفـين والمتعلمين. إن الجرعات الخفيفة الغثـة المزركشة التي تبثها محطات التلفـزة على مدار الساعـة تكرس سطحية ثقافية يتسـع انتشارها، وتسهم في نشر أمية متقنعة بقناع معرفي وثقافي!

☆ ☆ ☆

في الذاكـرة الشخصية مثلاً نماذج كثيرة لبعضـ التفاصيل التي تعكسـ أمية متقنعة استشرت عندنا. من تلك النماذج تعقيب نزق متعجـل لمثقفين -وحتى لقـادة أو مسؤولين كبـار لـدى الإشـارة إلى مـا شهدته في الهنـد مثلاً، بعدما تكررت زياراتي إلى دلهي

الجديدة وبومبي وكلكوتا منذ العام١٩٧١م، أو لدى التطرق إلى حدث أو تطور يخص الهند. يقول التعقيب مثلاً: «أليست هي الهند التي يولد فيها أناس على أرصفة، فيعيشون حياتهم بأسرها ويموتون على تلك الأرصفة؟»

أو القول مثلاً «أليست تلك البلاد تعج بالمتسولين؟».. تسأل أصحاب مثل هذا التعقيب كيف يمكن اختزال بلد هائل الحجم والتنوع والأهمية بهذا الوصف، فيرد كثير منهم فوراً قائلين إنهم رأوا هذا بأم العين في برنامج تلفزيوني أو شريط سينمائي أو سمعوه ممن سافروا إلى الهند!.. من تلك النماذج أيضاً رفض كثير من المتعلمين – وحتى بعض مدرسي الجغرافية- الاقتناع بأن معظم البلدان الاستوائية الأفريقية ذات مناخ معتدل لطيف على مدار السنة، وأقل حدة بالتأكيد مما هو سائد في معظم بلداننا العربية، فالثلوج دائمة على قمة جبلي كينيا وكلمنجارو، الواقعين على خط الاستواء، وأن مدناً مثل نيروبي وكمبالا وهراري وأبيدجان وداكار هي من أجمل مدن العالم وأنظفها، فيسارع هؤلاء إلى الرد باستنكار: هذا مستحيل، لقد تعلمنا في كتب الجغرافية أن الحياة شبه مستحيلة عند خط الاستواء فلا يعيش هناك لشدة الحرارة إلا وحوش ومتوحشون! إن التكلس في قوقعة انطباعات مشوهة مبنية على معلومات سطحية خاطئة مؤشر على تفشي وباء الأمية خلف قناع الثقافة السطحية، ثقافة «البوشار» و«مأكولات Take away السريعة».

نعود إلى الهند لنقف عند عناوين سريعة لواقع بلد الألف ومئة مليون نسمة الذي يمتد على مساحة ثلاثة ملايين ومئتين وتسع وثمانين ألفاً وثمانية وعشرين كيلومتراً مربعاً، بطول ثلاثة آلاف ومئتين وثمانية عشر كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب. هذا ما جعل الهند ثاني أكثر دول العالم سكاناً بعد الصين. يزيد عدد السكان الهنود عن مجموع سكان الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وأمريكة الوسطى وأمريكة الجنوبية وفرنسة وألمانية وبريطانية مجتمعين. كما أنه ليس في عالمنا دولة أخرى تضم مثل ذلك العدد الهائل من الموزاييك الاثني والعرقي والديني والطائفي واللغوي والثقافي والإنتاجي المتعايش والمتآلف في الهند: هندوس ومسلمون وسيخ

وبوذيون وجينيون ومسيحيون وزاردشتيون ويهود وانتماءات دينية أخرى، يتكلمون مئتي لغة محلية مختلفة أبرزها الهندية والبنغالية والأردية والتاميلية والتوغو، إضافة إلى الإنجليزية كلغة تفاهم جامعة نسبياً، والعربية أيضاً في أوساط عشرات الملايين من المسلمين الهنود، وينشطون في مئات الأحزاب السياسية، ولديهم آلاف الصحف. إن مجرد تعايش خليط شديد التنوع والتمايز ومحافظته علن نظام ديمقراطي راسخ ودولة متماسكة قوية قهرت أو قلصت أوبئة مستشرية وأمراض وعلل اجتماعية مستعصية أبرزها الأمية والشعوذة والفقر والتخلف وحدة الفوارق الطبقية، نجاح باهر، يضاف إليه نجاح ثورة علمية وتصنيعية شاملة طورت سلاحاً نووياً، ثم اقتحمت عصر الإلكترون وتقنياته، وباتت أكبر مصدر لبرامج الكمبيوتر إلى الولايات المتحدة في السيرة الذاتية للبروفيسور أبو بكر زين العابدين عبد الكلام، عالم الصواريخ والذرة البارز، أنه قضى طفولته وصباه يبيع الصحف على أرصفة الشوارع من أجل أن يقتات ببعض دخله، ويشتري بما يتبقى كتباً مستعملة يعكف على قراءتها بنهم شديد. أما أوقات فراغه فكان يقضيها في حانوت بيع الكتب في قريته، ليقرأ أي كتاب، في كل علم وفن وأدب. إن وصول مثقف بارز أو مفكر مشهور إلى رئاسة دولة يعد حدثاً فريداً، أما وصول عالم صواريخ وذرة فحالة شديدة الندرة، حتى لو كان منصب رئاسة الدولة رمزياً، حيث السلطة التنفيذية في الهند للحكومة ورئيسها، لا لرئيس الدولة لقد كان رئيس الهند الحالي عبد الكلام مشرفاً على البرنامجين النووي والصاروخي لبلاده، وقاد فريق إنتاج القنبلة النووية الهندية. أصدر الرئيس عبد الكلام مؤخراً كتاباً هاماً عنوانه (الهند ٢٠٢٠) استشرف فيه مستقبل بلاده، وركز على مسار التطور التقني والاقتصادي والاجتماعي الهندي. أبرز ما لفت نظري في هذا لكتاب كشفه النقاب عن إنجاز شديد الدلالة إذ قال إن الهند استطاعت خلال السنوات العشرين الماضية تخفيض نسبة من هم تحت خط الفقر من سكانها الألف ومئة مليون نسمة من ٦٥٪ إلى ٣٥٪. لئن حافظت خطة التنمية على إنجاز معدل نمو مستقر في الدخل الفردي قدره ٥,٩٪ سنوياً منذ العام١٩٩٢م وحتى العام٢٠٠٢م،

بينما يحتاج قهر الفقر إلى إنجاز نمو الدخل الفردي بمعدل ٧-٨٪، فــإن الطفرة العلمية والتكنولوجية التي حققتها الهند في السنوات العشر الماضية، بعد نجاح خطة ثورة التصنيع القائمــة علــى الاكتفاء الذاتــي، إضافة إلى تخفيف حدة الفــوارق الطبقية والعصبيات المذهبية ومكافحــة عوامل التخلف الثقافي، التي أطلقتها رئيسة الــوزراء الراحلة أنديرا غانــدي قبــل ثلاثين سنــة، ثم نجــاح ثورة التحديث التقني واقتحــام عصر المعلوماتية والإلكترون والكمبيوتر التي قادها ابنها رئيس الــوزراء الراحل راجيف غانــدي، قد مهدا لنجاح أوسع نطاقــاً، وأسسا لتقدم لاحق في سائر الحقول والمجالات. تخطت منافع هذا التقدم المــدن وانتقلت إلى الكتلــة السكانية الكــبرى في الريــف. أسهم في هــذا النجاح استقرار التقاليد الديمقراطية وحرية التعبير والعمــل السياســي واحترام التنــوع الثقافي والحضــاري، على الرغم مــن انتشار الفقر والأوبئــة والأمراضــ الاجتماعيــة والتنافر الشديــد أحيانــاً بــين الطبقــات والمذاهب والأديــان والطوائف والثقافــات التي تشكل المجتمع الهندي. بدت قوة الدولة واضحة من خلال المحافظة على وحدة البلاد وتماسكها السياسي، وتخفيــف حدة التنافر الحضاري والمذهبــي، والقــدرة على وضــع الأهداف ومتابعة تنفيذها، وتماسك النخب السياسية، وقوة جماعــات ومنظمــات المجتمع المدني، واستقرار هيبة الدولة وقدرتها على استيفاء الضرائــب، وإلغــاء الامتيــازات الإقطاعية للمهراجــات، والحد من امتيــازات متداولي النفــوذ بالوراثــة. وشكل حشــد الجماعات المحرومة تاريخياً ضمــن العملية الانتخابية أحــد أبرز عوامــل نجاح واستقــرار الحياة السياسيــة والحزبية الهندية، على الرغم من خطورة نمــو وطنية هندوسية متعصبة تمزج بــين الالتزام الدينــي الهندوســي والانتماء الوطنــي، بما يستفز المئــة وستين مليوناً من المسلمــين الهنــود الذين يشكلــون ثاني أكبر تجمع سكاني بعــد الهندوس، وخاصة بعدما بلــغ التعصب الهندوسي مــراراً حدّ ارتكاب مذابــح جماعيــة وحشية وممارســة القتل العشوائــي والإبادة الشاملــة ضد المسلمين، على نحو ما حدث سنة٢٠٠٢م في غوجارات. نشــير هنــا إلى أن الطبقــات الدنيا وطائفة المنبوذين منتظمتان سياسياً -على الرغم من

التنافس بينهما- وقد نجحتا في الحد من نفوذ وامتيازات الطبقات العليا، وفي إيصال محرومين أو منبوذين إلى رئاسة الدولة ورئاسة الحكومة، وفي نشر العلم والثقافة. نتوقف هنا عند ما كتبه نيكولاس كريستوف في نيويورك تايمز (١٨/١/٢٠٠٦م): «من بين أبرز نقاط القوة التي تتمتع بها الهند نهم أبنائها للتعليم والمعرفة. فبينما تقوم معظم الصحف الأمريكية باجتذاب القراء عن طريق الكوميدية، وتغريهم صحف الإثارة البريطانية بصور النسوة عاريات الصدور، فإننا نجد الصحف اليومية في مدن هندية كبرى مثل كالكوتا تجتذب القراء من خلال نشر معادلات رياضية!»

شدد الرئيس الهندي على أن العالم يتقدم بسرعة فائقة، وتتغير المفاهيم السائدة فيه كذلك بسرعة هائلة في ظل طغيان جائحة العولمة. وهكذا لم يعد الأمن القومي يعني قضايا الحرب والدفاع وتطوير السلاح واستيعابه فحسب، وإنما ارتبط بقضايا التجارة والاقتصاد والاستثمار واستخدام العلوم والمعارف والمعلوماتية وتطوير النظم الإدارية. لذلك تبدأ تنمية الشعوب -باعتبارها أولوية مطلقة- بتطوير بناها التحتية والبشرية والثقافية. إن وجود ٢٧٥جامعة وأربعة عشر ألف مؤسسة للتعليم العالي تخرج سنوياً أربعة آلاف من حاملي درجة دكتوراه، معظمهم في تخصصات التقنيات المتطورة، وخمساً وثلاثين ألف طالب هندي يدرسون سنوياً في الولايات المتحدة الأمريكية ومثل هذا العدد في الدول الأوروبية قد جعل خمس كبريات الشركات في العالم تؤسس لها فروعاً في الهند لاستثمار قدرات تكنولوجية متقدمة عالية ورخيصة جعلت منافسة وادي السيلكون الهندي تهز مركز مثيله في الولايات المتحدة. توقع تقرير خريطة العالم سنة ٢٠٢٠ الصادر عن مجلس الاستخبارات الوطني الأمريكي (كانون الثاني٢٠٠٥) أن تصبح قيادة ثورة دمج تكنولوجيا المعلومات بتكنولوجيا المواد في العالم ثلاثية: صينية -أمريكية- هندية. من هنا نستطيع استيعاب جوهر الاجتياح الأمريكي للجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى عسكرياً واستخباراتياً واقتصادياً بذريعة ظاهرية هي تأمين ظهر القوات الأمريكية التي غزت أفغانستان واحتلته، بينما سر هذا الاجتياح هو التحرك

الاستراتيجي من الأطلسي إلى قلب آسيا لمواجهة تحديات تفوق الاقتصاد الصيني على اقتصاديات اليابان وألمانيا وبريطانيا في حدود العام٢٠١٥م وإنجاز الهند تفوقاً مماثلاً بين العامين٢٠٢٠-٢٠٢٥م.

☆ ☆ ☆

لقد اصطلح على تسمية قدرة البلد على التدخل في شؤون البلدان الأخرى بشن حروب محدودة -أو التلويح بشنها- لحماية مصالحه وتعزيز أمنه القومي بالقوة الصلبة Hard Power، وأن تسمى قدرة البلد على بسط نفوذه والتأثير في البلدان الأخرى عبر استخدام الدبلوماسية والتأثير الثقافي والنشاط الاستخباراتي وتقديم المساعدات والاستثمارات بالقوة الناعمة Soft Power. ما من دولة صغيرة أو كبيرة تستطيع الاستغناء كلياً عن التعامل مع الدول الأخرى، وبالتالي التأثر بها أو التأثير فيها أو الحد من نفوذها من خلال ما لديها من عناصر وأشكال القوة. ولئن عانت الهند، وسوف تظل تعاني، من كونها محصورة شمالاً بدولتين عظميين: الصين شرقاً وروسيا غرباً، فهذا لا يحد من الآفاق الواعدة للهند كقوة كبرى في العالم بعد نجاحاتها الباهرة في حقول تكنولوجيا المعلومات والفضاء والتكنولوجيا الحيوية، إضافة إلى نجاحها عموماً في انتشال شعبها من حضيض الفقر إلى موقع أفضل. تميل الدول الغربية ومؤسساتها إلى اعتماد معدل الدخل الفردي للدولة مقياساً لأهميتها، اعتماداً على تعادل القيمة في القوة الشرائية لدولار ذلك الدخل (PPP) Purchasing Power Parity، وهنا يبدو موقع الهند متدنياً جداً في سلم الدخول الفردية للدول المختلفة. وتميل مؤسسات وجهات أخرى إلى اعتماد مؤشر التطوير الإنساني الذي تعتمده الأمم المتحدة Human Development Index (HDI) وهو يقيم قدرة الدول على تلبية الحاجات الرئيسة لمواطنيها اعتماداً على متغيرات متوسط العمر المتوقع عند الولادة ومعدل التعلم عند البالغين والعدد الفعلي للمسجلين في المدارس إضافة إلى إجمالي الدخل الفردي، وهنا احتلت الهند مرتبة متدنية، فكان ترتيبها١١٥ من أصل١٦٢ دولة توافرت بياناتها المطلوبة للتقييم لدى الأمم المتحدة. لكن اعتماد معيار آخر هو دلالة السكانPopulation Index، أي حاصل

ضرب عدد السكان في معامل مؤشر التطوير الإنساني الذي يلحظ العمر المتوقع والتعليم والثقافة، يجعل الهند تحتل المرتبة الثانية في العالم، بعد الصين، في حين تحتل الولايات المتحدة الأمريكية المرتبة الرابعة.

توقعت ديانا فاريل، مديرة معهد ماكنزي للأبحاث في نيويورك، اندماج الاقتصاد الهندي في قلب الاقتصاد العالمي، صناعة بعد أخرى، عقب النجاح الباهر المتصاعد للهند بتحقيق معدل نمو قدره ٥ر٨٪ في العام الذي انتهى في آذار ٢٠٠٤. وقد انتبه كثير من الخبراء إلى بدء عمليات تنسيق وتكامل وتداخل بين الاقتصادين الهندي والصيني، علماً بأن معدل النمو الصيني الذي أذهل العالم في العقدين الأخيرين إذ يقترب من معدل ١٠٪. لقد استقبلت الهند استثمارات إلكترونية صينية مثلاً، وتستثمر عدة شركات هندية من الباطن في الصين. تجاوز النهوض السريع ما توقعه الخبراء الغربيون من تخصص صيني في البضائع المصنعة وتخصص هندي في الاتصالات وباقي خدمات تكنولوجيا المعلومات، فبات التعاون الصيني -الهندي يشير إلى تقدم العملاقين نحو اللحظة التي يهتز النظام الاقتصادي العالمي الحالي لوقع خطاهما لعل في هذه الملامح الخاطفة لقفزة نهوض هائلة لثاني أكثر دول العالم سكاناً وإحدى أشدها فقراً إلى ما قبل سنوات قليلة ما يكفي لبيان دور الكتاب في تحقيق تلك القفزة /المعجزة التي ضاعفت الدخل القومي للهند عدة مرات في غضون سنوات قليلة.

☆ ☆ ☆

يتعمق بعض أصحاب الشكوى عندنا في أسباب التدهور متجاوزين التقليدي منها، مثل تفاقم الفقر والانشغال الكلي لغالبية الناس في أعمال إضافية تستغرق معظم ساعات النهار وشطراً من الليل لتأمين لقمة العيش، والنزوع إلى استسهال ثقافة البرامج التلفزيونية السطحية، وتراجع الكلمة أمام جائحة الصورة، فيتمعنون في مسؤولية البيت والمدرسة في تنفير الطفل من الكتاب. كي المطلوب حلول عملية عاجلة ناجعة، لكي لا تظل المأساة هي هي، مهما تعددت الأسباب وتنوعت الذرائع والتفسيرات. يضعنا الحديث عن جائحة الصورة أمام واقع المهيمنين على غالبية فيضان إعلام الصورة -تخطيطاً واستهدافاً وإنتاجاً- والمتحكمين

بتوزيعه على امتداد العالم الذين ينطلقون من موقف عدائي مسبق إزاء العرب. ففي «الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي كانت هوليوود تتخذ من (العربي) النموذج السيِّئ في أفلامها. كانت الرموز والدلالات المستخدمة آنذاك للصورة النمطية للعربي هي (الغترة والجمل -الحريم والجنس- النفط والقمار). وفي الثمانينيات والتسعينيات بعد أن بدأت تتشكل ملامح الصدام الحديث بين الإسلام والغرب، حتى بلغت ذروتها في أيلول (سبتمبر)٢٠٠١، تحوّلت هوليوود من استخدام نموذج (العربي) الذي يمثل دائرة مستهدفة قدرها ٢٠٠ مليون إنسان عربي، إلى دائرة أوسع بكثير تصل إلى١٢٠٠ مليون مسلم، تتشكل صورتهم النمطية في أفلام هوليوود من خلال (لحية وعمامة -مصحف وقنابل- إسلام وإرهاب)..» (زياد بن عبد الله الدريس، مندوب السعودية لدى اليونسكو، الحياة، ١٨/٤/٢٠٠٧م).

يرد أكثرنا المحنة العربية الراهنة إلى تشوه السياسة بحيث صارت مبادئ عابرة ومصالح دائمة، لكننا نرى جذر الأمر في إصلاح تربوي يبدأ في كل بيت، يواكب الإصلاح الثقافي الذي يتجه إلى عقل المواطن ووعيه وفكره ويوثر في موقفه ورأيه تجاه الإصلاحات السياسية والاقتصادية، ويهدف إلى إيجاد المناخ الفكري لإقناع المواطنين بالإصلاحات السياسية والاقتصادية، واعتبارها جزءاً من ثقافة المجتمع، ومن دون ذلك تظل النصوص والمؤسسات معلقة في الهواء بلا سند شعبي، فالنصوص وحدها لا تغير المجتمعات ما لم يستوعبها المواطنون في ثقافتهم.

☆ ☆ ☆